شفيق بك منصور

جوًى ساورَ الاحشاء والقلبَ واغلهُ ودمعٌ يضيم العين والجفنُ هاملهْ
وفاجعُ موتٍ لا عدوٌّ يخافهُ فيبقى ولا يلقى صديقًا يجاملهْ
انا ما جرى مجرى دمِ المرءِ حكمهُ وثبت على طرقِ النفوس حبائلهْ
سنشكوهُ اعلانًا وسرًّا ونيةً شكيَّة من لايستطيع يقابلهْ

ومن اجدر منّا بالشكوى في الجهر والنجوى وقد كان الفقيد خلاً وفيًّا وشهمًا ابيًّا سحرت معارفهُ عقولنا واختلبت عوارفهُ نفوسنا

فتىً لم يذق سكر الشباب ولم تكن عهبٌ شمالاً للصديق شمائلهْ
فتىً جاءهُ مقدارهُ واثنتا العلى يداهُ وعشر المكرماتِ انامِلهْ
فتىً ينفح الايامَ من طيب ذكرهِ ثناءٌ كأنّ العنبر الورد شامِلهْ

قيل عن ديكارت الفيلسوف الفرنسوي الشهير انهُ كان "رجل الفلسفة ورجل الظرف والرجلان مستقلاّن وهما مجتمعان في شخص واحد فمن الجهة الواحدة ترى عمود حكمة لايحيد شعرة عن الاسلوب العلمي الفلسفي ومن الجهة الاخرى ترى اديبًا ظريفًا يرضي الجميع ويسر الجميع". وما احرى هذا القول بفقيدنا الذي فقدَ الشرق بهِ عمود حكمة وجنة ظرف ولطف فكان لمنعاهُ رنة في النفوس ورهبة في القلوب

والحزنُ يقلق والتجمل يردعُ والدمع بينهما عصيٌّ طيعُ
يتنازعانِ دموع عينٍ مسهدٍ هذا يجيءُ بها وهذا يرجعُ

وقد طالما كما نوشي المقتطف بدرر افكارهِ ونفثات اقلامهِ وكنّا نحسب انهُ سيجري معهُ كهلاً وشيخًا ولكن ابت المنيّة الاّ ان تخترمهُ وهو في زهرة العمر ومقتبل الشباب كما اخترمت كثيرين من عظماء الرجال

الناس للموت كخيل الطراد والسابق السابق منها الجواد

فجرعنا غصص كاس الفراق وما امرّهُ فراقًا لولا الامل بالتلاق وما اعظمهُ مصابًا على الصحب والرفاق

مصابٌ لم ينفّس للخناقِ اصارَ الدمعَ جارٍ للماقِ
فروّض العلم بعد الزهو ذاوٍ وروح الفضل قد بلغ التراقي

ولكنّ هذا قضاء الله ولا مردّ لما قضاهُ

والنفس ان رضيت بذلك او ابت منقـــادة بـــازمّة الاقـدارِ

ولا بد من كنكنة الدمع واسترعاء السمع لذكر بعض ما نعلمهُ من آثار الفقيد ومآثرهِ

كانت ولادتهُ بمصر القاهرة في الخامس عشر من شهر مايو (ايار) سنة ١٨٥٦ وابوهُ الامير الجليل صاحب الدولة منصور باشا يكن وقد ربّاهُ احسن تربية واعتنى بتعليمهِ في المدارس المصريّة فتعلم فيها اللغة العربيّة والفرنسويّة والتركيّة ومبادئ الرياضيات والطبيعيات وبدت عليهِ مخايل النجابة والذكاء منذ نعومة اظفارهِ فاشتهر بين اقرانهِ بجودة الحفظ وسرعة الخاطر ولين العريكة . وسافر الى باريس في اواخر سنة ١٨٦٩ مع صاحب الدولة البرنس حسين باشا كامل ولم يقم فيها الاّ بضعة اشهر لانشباب الحرب بين فرنسا وبروسيا فعاد الى مصر ثم بارحها الى سويسرا سنة ١٨٧١ واقام فيها ست سنوات مشتغلاً بدرس العلوم الرياضيّة والطبيعيّة فنال منها الحظ الاوفر لان عقلهُ كان رياضيًا مفطورًا على حب البحث الطبيعي والاستسلام للدليل الرياضي واشتهر في حلّ المسائل الرياضيّة واستنباط النظريات الهندسيّة . وذهب بعد ذلك الى باريس واقام فيها اربع سنوات درس فيها علم القوانين وحاز قصب السبق واشتهرت براعتهُ في هذا العلم بما أُوتي من قوة الاحتجاج وطلاقة اللسان ودقة البحث في مقدمات الدعاوى ونتائجها

ولما شكلت لجنة تحقيق جنايات حريق الاسكندريّة على اثر الثورة العرابيّة اقيم فيها نائبًا عن الحضرة الخديويّة فبدت سعة مداركهِ وقوة حجتهِ وفصاحة منطقهِ في مناظرة كبار المحامين ومساجلة دهاة العرابيين حتّى لقد كنا ننتظر جرائد الاسكندريّة الساعة بعد الساعة ونحن في الشام لنطلّع على ما فيها من فصيح كلامهِ وسديد اقوالهِ

وسنة ١٨٨٣ شكلت المحاكم الاهليّة فاقيم قاضيًا في محكمة الاستئناف ثم وكيلاً للنائب العمومي ورئيسًا لنيابة محكمة الاستئناف واقام في هذا المنصب الى ان استقال سنة ١٨٨٧ . ولهُ في تنظيم المحاكم وتحسين ادارتها الهمة العلياء واليدُ البيضاء . ولبث مستقيلاً سنة كاملة ثم عيّن قاضيًا في محكمة الاستئناف كما كان اولاً . وفي الربيع الماضي اصابهُ الم في عينيهِ شكا منهُ زمانًا طويلاً وكان قد خطب كريمة البرنس عبد الحليم باشا فمضى الى اوربا ليعالج عينيهِ ثم يأتي الاستانة العليّة ويقترن بها فاعتراهُ داء عياء حار فيهِ كبار الاطباء كالشهير شاركو والشهير بوشار ولما قطعوا الرجاء من شفائهِ أُعيد الى القطر المصري فخفّت وطأة المرض شيئًا فشيئًا بغير علاج شأن كثير من الامراض العصبيّة حتّى نال الشفاء . واخر

مرة رأيناهُ كان في تمام الصحة لا يشكو الاَّ من هزال قليل في بدنهِ فاستبشرنا وبشرنا الاصدقاء والخلان وقلنا ان ما حدث سحابة صيف تقشعت ولم تدرِ ما اكنَّتهُ لنا نوائب الايام

ومكيِّفُ الايام ضدَّ طباعها متطلِّبٌ في الماء جذوة نارِ

فانعكس الداء وعزَّ العزاء وتوفاهُ الله يوم السبت في الخامس عشر من شهر نوفمبر (ت ٢) والحال انتشر منعاهُ في العاصمة وأُعلنت بهِ دواوين الحكومة فاكبر الجميع هذا المصاب وفاضت الدموع حتَّى تقرحت المحاجر وحنت الضلوع حتَّى تنطرت المرائر. وتقاطر الامراء والوجهاء الى دار والدتهِ يعزونهُ وهم لا يملكون للنفس عزاء ويرثون لبلواهُ وهم يودون لو كانوا للفقيد فداء. وشيعت جنازتهُ في اليوم التالي بمشهد عظيم مشى فيهِ كبار رجال المديَّة السنيَّة من قبل الحضرة الخديويَّة وبعض اعضاء العائلة العلويَّة ودولتلو رياض باشا كبير وزراء مصر وكثيرون غيرهُ من الامراء والوزراء والعلماء والوجهاء وما منهم الاَّ مَن ذرف عليهِ دموع الاسى وتأوَّه من عظم المصاب

وكان الفقيد من اكثر الرجال اشتغالاً بالعلم واكرامًا لذويهِ لم نرهُ مرة الاَّ رأيناهُ بين المحابر والدفاتر ولم نذاكرهُ في امر رجال العلم الاَّ رأيناهُ عارفًا بقدْرهم مجلاًّ لمقامهم ولاسيما الذين ألَّفوا في الشام فانهُ اقتنى كل مؤلفاتهم واطَّلع عليها وتابعهم في كثير من المصطلحات العلميَّة. وكان مولَعًا بقراءة المقتطف منذ اول نشأتهِ ولهُ فيهِ نبذ رشيقة ومناقشات دقيقة منها رسالة مسهبة في المحددات أُدرجت في المجلد السادس وقد قال في مقدمتها "ان اول مَن وضع صناعة المحددات هو الرياضي الشهير لاَيْبنِتْس وذلك في سنة ١٦٧٩ ولكن كان كلامهُ فيها وجيزًا جدًّا ثم بعد ذلك اشتغل فيها جملة من افاضل هذا العصر حتَّى اوصلوها الآن الى ما اوصلوها من الدرجة العظمى ولمزيد منافعها اوجبت اكثر ممالك اوربا تدريسها بالمدارس ولما كانت غير مذكورة الى الآن في الكتب العربيَّة اقدمتُ على ان اكتب النبذة الآتية بطريقة مختصرة سهلة لابيِّن مزيَّة هذه الصناعة التي قد دخلت في كل فروع الرياضيات" وقد أُدرجت النبذة المذكورة في ثلاثة اجزاء متوالية وفي الجزء الاخير منها تطبيق المحددات على الجبر وعلى حساب المثلثات. ومنها المناظرة الشهيرة في الاستقراء وكانت على اثر مسألة ابن الهائم التي طرحها المرحوم الدكتور ميخائيل مشاقة الدمشقي على المشتغلين بالرياضيات في الجزء الثاني من المجلد السادس من المقتطف وقد اشتغل في هذه المناظرة كثيرون في السنة السادسة والسابعة من سني المقتطف فكان الفوز

للنقيد وظهر فيها ابن عربكتهِ في المناظرة وقوّة حجتهِ في المساجلة وغزارة علمهِ في سرد الادلة. ولهُ فيهِ آثار كثيرة غير هذه وكلها تشهد لهُ بطول الباع في العلوم الرياضيّة ودقة البحث في فروعها المختلفة. وكان من اول من رحّب بالمقتطف يوم نقلناهُ الى القطر المصري برسالة شائقة نشرت بعد رسالة دولتلو رياض باشا ودولتلو شريف باشا في الجزء السادس من المجلد التاسع شدّ بها ازرنا وقوّى عزائمنا وطوّقنا طوقًا من الفخر لا تنساهُ مدى الدهر

ولهُ كتب كثيرة منها كتاب التفاضل والتكامل وهو سفر جليل بسط فيهِ مبادئ هذا الفن على اسلوب بديعٍ من الطلبة. ومنها كتب صغيرة في مبادىء الحساب والجبر والهندسة والقسموغرافيا وكلها غاية في الصراحة والبساطة ولقد احسنت الحكومة المصريّة في اقتراحها عليهِ تأليف هذه الكتب وجارت بذلك ممالك اوربا التي تقترح تأليف كتب المبادىء على اكبر العلماء. وترجم كتاب رياض المختار وكتاب اصلاح التقويم عن التركيّة الى العربيّة وكلاهما لصاحب الدولة الغازي مختار باشا. وقد زرناهُ يومًا حين شروعهِ في ترجمة رياض المختار فوجدناهُ فرحًا جذلاً باطلاعهِ على نظريّة الربع المجنّب ثم ما لبث ان برهن بها خمسة من قوانين حساب المثلثات المشهورة وقد اثبتناها في الجزء الثاني من المجلد الرابع عشر واشتغل في العام الماضي والذي قبلهُ بالموسيقى العربيّة وتطبيقها على العلامات الافرنجيّة والف رسالة مسهبة في ذلك ووعدنا بنشرها في المقتطف ثم عاجلتهُ المنيّة قبل انجاز الوعد. ولهُ رسالة باللغة الفرنسويّة طبّق فيها الجبر على بعض المسائل الفقهيّة. واشتغل ايضًا بترجمة تاريخ الجبرتي من العربيّة الى الفرنسويّة وفي شرح القانون المدني وكان عضوًا في المجمع العلمي الشرقي وفي جمعيّة المعارف وفي الجمعيّة الجغرافيّة المصريّة وكان بيتهُ ناديًا للعلماء والفضلاء ومجلسهُ مجمعًا للادباء والظرفاء فنفقدت المعارف بنقدهِ صديقًا حميمًا والآداب شهمًا كريمًا. ولا نرى سبيلاً للتأسّي الاّ بالآثار الكثيرة التي ابقاها وبانهُ كان مثلاً للاجتهاد والحكمة والشهامة ولبين العربكة وهذه الآثار والمآثر تخلد في هذه الدنيا كما تخلد نفسهُ في دار الخلود

وما مات امرؤ ابقت يداهُ مآثر لا تزول ولا تبيدُ

تغمدهُ الله بالرحمة والرضوان والهم دولة والدهِ وآلهُ الكرام وجميع محبيهِ جميل العزاء والسلوان